



ظاهرة تجتاح العالم الواقعي قبل الافتراضي، حيرت المراقبين والمتابعين للأوضاع الإقليمية والدولية، والمهتمين بشئون الجماعات الإسلامية، كما حيرت أيضاً دوائر صنع القرار في عواصم السيطرة والهيمنة وردائها في عواصم التبعية والانبطاح، إنها ظاهرة تباهي التأييد الفكري والأيديولوجي لتنظيم الدولة "داعش" في صفوف الشباب المسلم،

ليس تأييداً محلياً أو إقليمياً فحسب ولكنه تجاوز الحدود الفكرية الشفافة، وأصبح تأييداً عالمياً ترجم في صورة عشرات الحالات لشباب أوروبي وغربي شد الرحال إلى سوريا للاشتراك في صفوف مقاتلي الدولة، إيماناً أم انبهاراً أم إعجاباً أم فورة شباب؟

لا يدرى المحللون، ولا يقفون على أرض صلبة تفسر هذا الإقبال الكبير والمتناهي لتنظيم الدولة بين صفوف الشباب عالمياً. موجة متتالية من البيرات وإعلان الولاء والانضمام للتنظيم شهدتها المنطقة خلال الأسبوعين الماضيين في مصر والجزائر وليبيا وتونس ونيجيريا، وتمدد كبير في الشمال الإفريقي، بيعة لـ«داعش» في المنطقة الوسطى للمغرب العربي المنشقة عن تنظيم «القاعدة»، وبيعة أخرى للخلافة الإسلامية تؤدي طقوسها «كتيبة عقبة بن نافع» في تونس وهي إحدى كتائب قاعدة المغرب الإسلامي، وبيعة أنصار بيت المقدس في سيناء بمصر، وشباب متدينون من جنسيات مختلفة متخصصون في شمال إفريقيا وفي منطقة الساحل للخلافة الجديدة، يضغطون على أمرائهم لمبايعة خلافة البغدادي، دول تحضر وتستعد لمواجهة تمدد هذه الخلافة التي ازدادت التعاطف معها قوة بعد استهدافها من طرف التحالف العسكري الدولي في العراق وسوريا.

هذه هي الصور التي تراءى للمراقبين المتبعين لمتمدد الدولة الإسلامية نحو منطقة شمال إفريقيا ونحو المنطقة الساحلية؛ هاتان المنطقتان الجاهزان المزدحمتان بآلاف الشباب المتحمس للجهاد، والذي يدفعه خطاب المبشرين بالخلافة الإسلامية بالمسارعة نحو تأييد داعش واللحاد بركابها إن وجد لذلك سبيلاً.

المحللون الغربيون يصعب عليهم تفهم إعجاب الشباب العربي والمسلم بتنظيم الدولة بشكل عام، فكثير من الناس يفترض أنه بسبب شبكات التواصل الاجتماعي، إلا أن هذه ليست بالأسباب الكاملة لإعجاب وانضمام مئات الشباب تاركين حياتهم للانضمام لقوات التنظيم في سوريا والعراق.

لذلك تجدهم يتخطبون في تفسيرات كثيرة بعضها عمومي بطريقة لا تصلح لإسقاطها على واقع الأمر، والآخر مجاف للحقيقة بصورة كبيرة، والثالث يصلح في حالات فردية لا تتماشي مع جماعية الإعجاب القائم اليوم.

فنظم التعليم والانهيار الاقتصادي والتفاوت الطبقي والرغبة في المغامرة والبحث عن تجربة جديدة وفريدة، محاور يدور في فلكها معظم المراقبين والمحللين، ولكنها تبقى في النهاية أسباب عامة لا تصلح في واقع شديد الالتباس تشظياته أكثر وأسرع من التقييم والمتابعة.

فداعش تجذب مثقفين وأكاديميين وأثرياء وأوروبيين مرهفين وهذه نماذج تجعل من محاور التفسير غير صالحة. واستقراء الواقع الإقليمي والدولي بصورة حيادية سوف يقودنا لأسباب أخرى غير تلك التي يحرص الغربيون على ترويجها وتسويقها عن هذه الظاهرة الصادمة لهم.

ومن أبرز هذه الأسباب ما يلي :

• أولاً : الانقلاب العسكري المصري:

وهو الذي مثل لحظة الذروة في تصدام الأحلام والطموحات الشبابية مع الواقع المريء بعد فشل الربيع العربي، فشباب ارتفعت طموحاتهم حتى عانقت عنان السماء، وداعبت آمال الحرية والتزاهة والعدل والحق والرخاء عندهم عباب السحاب، وفجأة تحولت الأحلام إلى أسوأ الكوابيس، وانحاطت آمالهم إلى أسفل سافلين، وهم يرون انتفاضة الأنظمة الاستبدادية وتكلاف قوى الشر لعودة النظم السلطوية الفاسدة، والذي كان الانقلاب العسكري في مصر أبرز تجلياته وأفطع حقائقه، فعودة نظم الحكم الفاشلة التي أدت لتفاقم مشاعر الظلم، والإساءة المنهجية للمواطنين على أيدي حوكماهم لم تقم سوى بتأجيج مشاعر الغضب وتسهيل حركة الشباب تجاه تنظيم الدولة، فعلى مدار عقود عاملت الحكومات العربية مواطنها كتهديد لأمنها القومي؛ معرضة إياهم لمستويات فريدة من العنف.

فوفقاً لاستطلاع رأي حديث عقده معهد كارنيجي للسلام، فإن خمسة وخمسين بالمائة من المواطنين العرب لا يثقون بحكوماتهم ونخبهم السياسية، ويرى أكثر من تسعين بالمائة أن الفساد المالي والحكومي منتشر بالأجهزة الحكومية، بينما يرى أقل من واحد وعشرين بالمائة أن القانون يعامل كل المواطنين بالمثل.

ثانياً: فشل الحلول الديمقراطية والوسائل السلمية في حسم الصراع مع قوى الاستبداد ووكالء الهيمنة والتبعية في الشرق الأوسط، فكثير من المؤمنين بحتمية الخيار الديمقراطي ومن المدافعين عنها حتى النهاية تجلت حقيقة الديمقراطية أمامهم بكل روعة وهي تدهس تحت جنائز الدبابات وتتصف بصورين الإبانتشى، فكفروا بها كفراً أكبر، وطلقوا ثلثاً، ولعنوها ولعنوا أهلها، فقد تجلت الديمقراطية كواحدة من أكبر الخدع والحيل التي احتال بها الغرب الديمقراطي جداً على الشرق

المسلم الساذج جداً من أجل صرف هذا الشرق البائس عن أهم مصادر قوته وهو دينه وكرامته وشريعته.

ثالثاً: انهاي المثل الأفلاطونية والسايatica جراها الغاندية لصالح الكفاح المسلح ضد الطواغيت والمستبددين، فقد تحول الفقه السياسي الإسلامي - مع فشل الربيع العربي - من فقه يتحكم فيه خوف الفتنة وتسویغ الاستبداد إلى فكر يسويغ الثورة، ويجرد الاستبداد من كل شرعية دينية أو أخلاقية.

وهذا تطور في تاريخ الأفكار له ما بعده في مسار التاريخ السياسي الإسلامي. فالجهاد الذي تفجر مع فشل الربيع العربي إحياءً لمذهب السلف القديم في الخروج على حكام الجور الخارجين على الأمة، وتحرر من ركام البدع السياسية التي تسويغ الخضوع للظلم والخنوع للضيم.

الربيع الذي بدأ مخملياً، سرعان ما تسريل بلون شقائق النعمان، لون الدم القاني، وهذا أمر يستقله اليوم من استرخوا ثمن الحرية ابتداءً، ويستغربه من قاسوا مجتمعاتنا على مجتمعات أخرى لا تعاني ما تعانيه من تراكم الاستبداد، ونفوذ القوى الدولية، وانشطار الهوية الثقافية.

لكن هذا التحول من المسارات السلمية إلى المواجهات العسكرية -على فداحة ثمنه- دليلٌ يليغٌ على أن فشل الربيع العربي كان شرارة البدء للمفاصلة الجهادية وترك المسارات السياسية المخملية.

رابعاً: الطائفية والأيديولوجية:

فقد كان اللعب بورقة الطائفية حاضراً بقوة في مشهد إفساد الربيع العربي، فالتصدي القاسي للتظاهرات الرافضة للنظم الاستبدادية جاء بناءً على نزعة أيديولوجية وطائفية، وكان كافياً لتأجيج التضارب المجتمعي أكثر وأكثر؛ مفاصلاً من الاحتفان والقطبية الاجتماعية والطائفية.

فالعنف المنهجي من قبل النظم السلطوية ضد المواطنين خلق شقوق عميقة في النسيج الاجتماعي مسببة الاغتراب للشباب الذي شعر بإمكانية تغيير المستقبل نتيجة للتظاهرات؛ باحثاً عن أسباب جديدة وأكبر للحياة والانتماء.

يظهر هذا واضحًا للعيان في كل من سوريا والعراق واليمن، فالتدخل الإيراني العسكري المتزايد بشكل غير مباشر في الدول العربية ما هو إلا تمظهر للخلاف التاريخي بين أهل السنة والشيعة الرافضة، ويعود برسالة شديدة السلبية، وهذه الرسالة لا تترجم عند ملايين السنة في العالم العربي إلا بالشكل التالي: "لقد أتى الشيعة للانتقام".

وبالنسبة للشباب السنّي الساخط فإن الانضمام لجماعة مجاهدة ذات قوة مبهرة على أرض الواقع هو نصرة للعقيدة والأمة، وتنظيم الدولة لا يفوت مثل هذه الفرصة في استخدام النزعات الطائفية والتأكيد على مشاعر الظلم لدى الشباب السنّي.

خامساً: جاذبية الخلافة:

فحلم الدولة الإسلامية النموذج الذي تجمع مسلمي العالم تحت رايته، وتطبق الشريعة في ربوعها، حلم كان وما زال يراود كثير من المخلصين الذين تورقهم العلمانية المتوجهة التي عليها مجتمعاتهم، لذلك كانت الخلافة الإسلامية الهدف الإستراتيجي الأهم والأبرز على أجندته جميع التيارات الإسلامية والجماعات المجاهدة، هدف يتفق عليه الجميع ولا يماري فيه أحد.

وعبر عشرات المحاولات لإقامة الدولة الإسلامية في الوقت الحاضر لم تنجح على الحقيقة سوى دولة "داعش".

ولادة هذه الدولة الجديدة هو أكبر تغيير على الجغرافيا السياسية للشرق الأوسط منذ تطبيق اتفاقية سايكس-بيكو بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، إذ أصبحت قبلة ومهجراً لكثير من الحالمين بالدولة الفاضلة التي تحكم بشرع الله، ولا يرى فيها أثر للخروج عن الأخلاق والفضائل والقيم.

وكل الحركات الجهادية الساعية لإقامة الدولة الإسلامية فشلت في تكوين دولة، وظلت كامنة في مرحلة الدعوة والمواجهة، بما في ذلك التنظيم الأُم - القاعدة - الذي فشل أن يحقق ما حققه داعش على حداثة عمر داعش مقارنة بالقاعدة.

سادساً: بريق الإنجاز؛

داعش تعتمد سياسة الإنجاز السريع والخطيط الإستراتيجي، فميدانياً هي تتحرك بحرفية عالية وبرجماتية ظاهرة، وقد مزجت بين الأساليب العسكرية التقليدية والعمل الجاهادي التقليدي وال العلاقات القبلية وهيكل قيادي بدرجة عالية من التنظيم. ويرجع "النجاح المذهل" للدولة الإسلامية عند اجتياح مقاتليها لشمال العراق وسوريا، إلى بنية شديدة التنظيم تسيطر عليها دائرة قيادية ضيقة ومتماضكة يستبد بها الغلو والتشدد تعلمت من أخطاء أسلافها في تنظيم القاعدة.

هذه النجاحات الميدانية والجسم في مواجهة الخصوم والقسوة المفرطة في التعامل مع الأعداء يجذب كثيراً من الشباب الذين يرون دماء المسلمين وجثثهم تملأ الشوارع والطرقات في شتى بقاع الأرض من تايلاند وبورما والصين شرقاً إلى أفريقيا الوسطى غرباً، ناهيك عن الملايين بين قتيل وجريح في سوريا والعراق وفلسطين ومصر ولبيبا، كما تجذب كثير من المقهورين الذين يرون أنفسهم عاجزين عن التصدي لهيمنة الصهاينة وعربتهم في فلسطين والأقصى دون حسيب ولا رقيب، بالجملة داعش تمثل لكثير منهم مصدر عزة وفخر وقوة - رغم غلوهم الظاهر - أمام عربدة وتطاول الخصوم والأعداء.

سابعاً: فقد الثقة في الغرب نهائياً؛

فقد قام الغرب وجيشه بالتدخل في العراق ولبيبا واليمن والصومال، ولكنه فشل في دعم التظاهرات السلمية في سوريا والمطالبين بالديمقراطية في مصر والراغبين في بناء الدولة في لبيبا؛

وكل هذا لا يمكن فهمه إلا في إطار النوايا الخبيثة للغرب فيما يخص المنطقة، تاركاً الخلافة الإسلامية كبديل ذي قوة وواجهة لاستعادة كرامة وحقوق العرب والمسلمين.

فالغرب وأمريكا التي تتغنى بالدفاع عن حقوق الحيوان قيل الإنسان تتلّكاً في نجدة السوريين لثلاثة أعوام وهم يقتضون بشتى أنواع السلاح بما في ذلك الكيماوي والمحرم دولياً، ثم تجييش العالم كله ضد تنظيم جهادي بدعوى أنه يهدد المنطقة تاركة الأسد دون أدنى عقاب، وأمريكا التي تحكم في المؤسسات والهيئات الدولية تدفعها للتنديد بأوضاع حقوق الإنسان في مصر، ثم ترسل وفداً مكون من 250 من كبار رجال الأعمال لفتح استثمارات تدعم وضع سلطة الانقلاب بأكثر من عشرين مليار دولار!

هذه السياسة الأمريكية المتناقضة فسرها لنا أدوراد لوتواك - وهو منظر استراتيجي أمريكي يهودي - يوم 24 أغسطس 2013 في صحيفة نيويورك تايمز.

ففي مقال بعنوان (في سوريا: ستخسر أمريكا إذا كسبَ أيّ من الأطراف) كتب لوتواك: "إن الاستنزاف الطويل الأمد في هذه المرحلة من الصراع هو المسار الوحيد الذي لا يضرُّ المصالح الأمريكية"، وختم بنصيحة لصانع القرار الأميركي قال فيها:

"سِلّحُوا المُتَمَرِّدِينَ كُلَّمَا بَدَا أَنْ قَوَاتَ السَّيِّدِ الْأَسَدِ فِي صَعُودٍ، وَأَوْقَفُوا دُعْمَهُمْ كُلَّمَا بَدَا أَنَّهُمْ سِيَكْسِبُونَ الْمُعْرِكَةَ".

كل هذه الازدواجية الكاشفة دفعت الشباب لخيار الدولة الإسلامية التي تبدو للعالم كله أنه بصدق تحدي أكبر تحالف دولي شهدت التاريخ ضد العالم الإسلامي.

بل حتى الذين لا يحبون «داعش» يتعاطفون معها في مواجهتها للولايات المتحدة وللتحالف العسكري الغربي، فتنظيم القاعدة بدأ بعده قليل من الناشطين في أفغانستان وبفعل معاداة الولايات المتحدة له انتشر في موقع كثيرة في العالمين العربي والإسلامي.

مُفْكِرَةُ الإِسْلَام

المصادر: